مِحْوَرِيَّةُ الإِمَامَةِ فِي الْغَدِيرِ

بِرُؤْيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ مُقَارَنَةٍ

د. مواهب صالح مهدي الخطيب

قم المقدسة / جامعة المصطفى العالمية

The pivot of Imamate matter in the Al-Ghadeer Through a Quranic Comparison View

D. Mawahib Salih Mahdi Alkhateeb

m.alkhatib2013@gmail.com

ملخص البحث

لا يخفى أنَّ الإمامة تعدُّ من المسائل المهمة التي تُبنى عليها زعامة المسلمين والسلطة التشريعية والسياسية بعد رسول الله ﷺ، ومن البديهيّ أنَّ أهم المصادر التي تعيّن لنا أبعاد هذه المسألة هو القرآن الكريم لأنَّه مصدر التشريع عند المسلمين ومورد اتفاقهم؛ ولذا فهذا البحث يسلط الضوء على مسألة محورية الإمامة في آيتين مهمتين استند إليهما أبناء العامة والخاصة من مدرسة أهل البيت وأتباع مدرسة الخلفاء في إثبات مدعياتهما في هذه المسألة.

ولقد اخترنا أهم التفاسير عند الفريقين لنعقد مقارنة بينهما من أجل معرفة دلالة الآيتين على محورية الإمامة برؤية تفسيرية مقارنة تحليلية بين تفسيرين مهمين من علمين من إعلام الأُمَّة الإسلامية هما الطباطبائي والرازي.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنَّه يكون مدعاةً لتقريب وجهات النظر بين علماء المدرستين إذا ثبتت الرؤية التفسيرية الموحدة، وجدير بالذكر أنَّ هذا الهدف ضروري في زمننا هذا الذي يكثر فيه التناحر الطائفي والمذهبي، فالسبيل الأنجع أن نتجه لكلمة سواء توحّد صفوف المسلمين تحت محوريّة كلام الله عزَّ وجلَّ، نسأل الله التوفيق لإتمام البحث بمنِّه وعونه إنَّه عزيز قدير.

الكلمات المفتاحية:

الإمامة – الغدير – رؤية قرآنية – مقارنة – كتب التفاسير.

Abstract

It is no secret that the imamate is one of the important issues on which the leadership of Muslims and the legislative and political authority is built after the Messenger of God, may God's prayers and peace be upon him and his family. Therefore, this research sheds light on the central issue of the Imamate in two important verses on which the public and private sons of the Ahl al-Bayt school and the followers of the Caliphs school relied in proving their claims in this issue.

We have chosen the most important interpretations of the two groups to make a comparison between them in order to know the significance of the two verses on the centrality of the Imamate with an interpretive view. An analytical comparison between two important interpretations of two sciences from the media of the Islamic nation are Al-Tabataba'i and Al-Razi.

key words:

Imamate - Al-Ghadeer - Quranic vision - comparison - books of interpretations

المقدّمة

لا يختلف أحد من المسلمين أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله تعالى على رسوله الأكرم لينقذ الناس به من حيرة الضلالة، وأنَّ أهم وظيفة للنبيِّ الأكرمﷺ هي إبلاغ رسالة الله لعباده، سواء ما جاء بشكل آيات كريمات أو تبيان مصاديق الآيات وتفسيرها ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ومن المتيقن به أنَّ مسألة الإمامة وقيادة المجتمع البشري فضلاً عن المجتمع الإسلامي من أهم المسائل التي يهتم بها البارئ عزَّ شأنه وعلا جلاله، ومن المسلَّم به أنْ يفرد لها آيات خاصة تكون محورها مسألة الإمامة للأُمَّة، وأنْ يشدد على رسوله الأعظم طرحها وتبليغها لعباده، فضلاً عن آيات أُخرى يقرنها بالإقرار له بالوحدانية وللرسول بالنبوّة، ويجعل طاعة الإمام فيها مقرونة بطاعته وطاعة رسوله؛ ولذا فهذا البحث يناقش آيتين مهمتين في مسألة الإمامة ليستنبط منها محورية الإمامة، وهما آية التبليغ وآية الإكمال الموجودتان في سورة المائدة والتي توافق أغلب العلماء على شأن نزولها والمسألة التي يطرحانها، وإنْ كانوا اختلفوا في المصداق، وفي هذا البحث بعد ذكر المقصود من الإمامة والمقصود من المحورية لها في الآيتين يقدّم تفسير الرازي الذي هو من كبار علماء ومفسري أبناء العامة ويستجلي وجهة نظره حول الآيتين مورد البحث، وتلخص منه

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

أنَّه يرى أنَّ الآيتين تطرح الإمامة والزعامة الدينية، إلَّا أنَّه لا يقر بمصداقها عند الشيعة، ثُمَّ يذهب البحث ليتعرف على ردود تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي الذي هو من كبار مفسري الشيعة ويرى الأجوبة للإشكالات التي طرحها الرازي؛ ليتبين أنَّ العلّامة يؤيد أنَّ محورية الإمامة موجودة في الآيتين ويذكر لنا المصداق لهما من تبيين رسول الله ﷺ وشواهد النزول والحوادث التاريخية التي سجلها الفريقان، ويخلص البحث إلى مقارنة وتحليل بين التفسيرين لاختيار ترجيح كفة الميزان للعلامة الطباطبائي؛ ذلك لأنَّه التزم بالقواعد الأُصولية والضوابط الموضوعية في تفسير الآيتين، وثبّت محورية الإمامة فيهما.

المبحث الأول: معنى الإمامة

معنى الإمامة لغوياً

الإمامة: هي تقدّم شخص على الناس على نحو يتبعونه ويقتدون به.

أَمَّا الإمام، فهو: من يُقتدى به، وهو الذي يتقدّم على الناس وهم يأتمون به، ويقتدون به في القول أو الفعل أو غير ذلك[١]

استعمال الإمامة قرآنياً

استعمل القرآن الكريم كلمة – أئمة – بالمعنى المتقدّم في إمامة الحق والباطل على حدٍّ سواء، حيث قال: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ... ﴾[٢].

كما واستعمل القرآن الكريم – الأئمة – في كلٍّ من أئمة الحق والباطل على انفراد، فقال في أئمة الحق: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[٣]، وقال أيضاً: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٤].

ثمَّ إنَّ الإمامة إمَّا أنْ تكون شاملة ومطلقة فتكون عامة تشمل جميع الجهات، كقول الله

(١) راجع: مفردات غريب القرآن: ٢٤، ومجمع البحرين: ١/ ١٠٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

سبحانه وتعالى بالنسبة إلى النبيِّ إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وإمَّا أنْ تكون غير شاملة بل مقيدة بحدود خاصة، فيكون الإمامُ إماماً ضمن تلك الحدود وفي تلك الجهة المصرّح بها، كما في إمام الجماعة أو الجمعة أو بالنسبة إلى إمامة الحجاج أو غير ذلك.

الإمامة في الثقافة الإسلامية

إنَّ مفهوم الإمامة في الثقافة الإسلامية العامَّة يتبادر منه الولاية والحكم ويمثل هذا المفهوم تصوراً أولياً لمفهوم الإمامة التي فسروها بمعنى الخلافة أو الوصاية أو الرئاسة في أُمور الدين والدنيا، وكلُّ هذه المعاني غير معنى الإمامة في المصطلح القرآني كما يصرّح الطباطبائي (وليست الإمامة تخالف الكلمات السابقة وتختص بموردها بمجرد العناية اللفظية فقط، إذ لا يصح أنْ يقال لنبيٍّ – من لوازم نبوّته كونه مطاعاً – إنِّي جاعلك للناس مطاعاً – والحال أنَّه كان كذلك، بل إنَّ هذه المفاهيم تدلُّ على مواهب إلهية، لا أنَّها مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية...، ثُمَّ يتابع: فلمعنى الإمامة حقيقة وراء هذه الحقائق)[2] مستنداً بذلك إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: (إنَّ على كلِّ شيء حقيقة وعلى كلِّ صواب نوراً)[3].

يمكن للمتتبع للآيات القرآنية أنْ تتضح كثير من الأبعاد الأُخرى للإمامة منها ما دلّت عليه آية الإمامة الإبراهيمية:

١ – إنَّ الإمامة هي هداية للناس.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) تفسير الميزان: ١/ ١٢٤.

(٣) أُصول الكافي: ٢/ ٥٤، باب حقيقة الإيمان واليقين.

٢- إنَّ الإمامة عهد الله.

٣- إنَّ الإمام لا يمكن أنْ يكون ظالماً.

٤- إنَّ الإمامة مرتبة عالية أعلى من درجة النبوّة (ويتفرع على ذلك) لا بُدّيّة أنْ تجتمع في الإمام أبعاد النبوّة بمستوياتها العالية.

٥- إنَّها عالمية وللناس جميعاً.

٦-إنَّه واحد دهره في كلِّ زمان.

٧-لولا الإمام لساخت الأرض بأهلها.

٨-إنَّه حجّة الله على الخلق ويستحيل أنْ يوجد من يفوقه بشيء من الفضائل.

٩-إنَّه الأُسوة والمثال المتحرك وهو القرآن الناطق...إلى غير ذلك من خصائص الإمام.

إنَّ البحث المنطقي يحتِّم علينا أنْ نتعرف على حقيقة الإمامة كما يراها صاحب الميزان والرازي لنعرف موارد الوفاق والاختلاف بينهما، فيذهب الطباطبائي وفق منهجه القرآني إلى أنَّ الإمامة ليست مجرد مفهوم اجتماعي ولا رئاسة في الدين والدنيا، بل هي هداية تكوينيّة وسيطرة على القلوب والأعمال واستلام للفيوضات الإلهية الباطنية، وأنَّه سبب متّصل بين الأرض والسماء، والإمام هادٍ للناس بأمر إلهي ملكوتي

يقول العلامة الطباطبائي[1]: (إنَّ هذه الهداية المجعولة من شؤون الإمامة ليست بمعنى إراءة الطريق لأنَّ الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعدما جعله نبياً، في تفسير قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[2]، ولا تنفك النبوّة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق فلا يبقى للإمامة إلَّا الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب وهي نوع تصرفٍ تكوينيٍّ في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر.

وإذا كان الأمر تصرفاً تكوينياً وعملاً باطنياً فالمراد بالأمر التكويني الذي تكون

(١) ينظر الميزان: الجزء الرابع عشر، بحث الإمامة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

به الهداية ليس هو الأمر التشريعي الاعتباري، بل ما يفسره في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ...﴾[1]، فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبسون بها رحمة من ربهم.

أمَّا من وجهة نظر الرازي فالأمر مختلف تماماً بالنسبة لمسألة الإمامة، فالأصل ثابت والمصداق عنده مختلف فهو عندما يناقش المفسرين في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[2]، يذكر وجوه ما ذهبوا إليه حول المراد من أُولي الأمر فأولها: الخلفاء الراشدون، والثاني: المراد أُمراء السرايا، وثالثها: المراد العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ويعلمون الناس دينهم، ورابعها: نقل عن الروافض أنَّ المراد به الأئمة المعصومون، ولمَّا كانت أقوال الأُمَّة في تفسير هذه الآية محصورة في هذه الوجوه، يختار من الوجوه حمل أُولي الأمر على الأُمراء والسلاطين ويستدل عليه أنَّ الأُمراء والسلاطين أوامرهم نافذة على الخلق، فهم في الحقيقة أُولو الأمر.

إنَّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على وجه الإطلاق ولم يقيده بشيء، ومن البدهي أنَّه سبحانه لا يرضى لعباده الكفر والعصيان ولو كان على سبيل الإطاعة لشخص آخر، وعليه تكون طاعة أُولي الأمر فيما إذا أمروا بالعصيان محرماً.

فمقتضى الجمع بين هذين الأمرين أنْ يكون أولو الأمر الذين وجبت إطاعتهم على وجه الإطلاق معصومين لا يصدر عنهم معصية مطلقاً، فيستكشف من إطلاق الأمر بالطاعة اشتمال المتعلق على خصوصية تصدّه عن الأمر بغير الطاعة[3].

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٣) انظر مفاتيح الغيب: ١٠/ ١٤٤.

وهكذا نرى الرازي صرح بدلالة الآية على عصمة (أُولي) في تفسيره، ولكنَّه لم يستثمر نتيجة ما هداه إليه استدلاله المنطقي إذ استدرك قائلاً بأنَّا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم والوصول إليه واستفادة الدين والعلم منه، فلا مناص من كون المراد هو أهل الحل والعقد.

محورية الإمامة

المقصود في البحث عن دلالة الآيات على(محوريّة الإمامة) هو أنَّ مسألة الإمامة هي الموضوع الأساس في الآيات الكريمة مورد البحث وهي الآية الثالثة والآية السابعة والستون من سورة المائدة، ويعرف ذلك من خلال منهج منطقي في الاستدلال نوضحه في نقاط:

أ- جمع الآيات القرآنية المختلفة بموضوع الإمامة ودراستها دراسة موضوعية.

ب- أخذ آية تمثل المحور للموضوع الذي يدور حوله البحث ألا وهي آية ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ...﴾، واستخراج مباحث وخصائص مهمّة منها.

ج- رفد تلك الخصائص بآيات أُخر وضّحت المعنى وفسرته وعرفت الموضوع.

د- اعتمد على أُصول موضوعيّة مهمّة يبتني عليها التفسير وتساعد في فهم الآيات منها:

١- إنَّ هناك مقامات باطنية ومراتب حقيقية يرتقي إليها المؤمن السالك درجةً درجة.

٢- إنَّ لكلِّ سبب مسبباً، أي اعتمد على قانون العليّة وأنَّ لكلِّ شيء سبباً فلا بُدَّ من سبب به يفيض الله عزَّ وجلَّ الفيوضات على الناس سواء الباطنيّة منها أو الظاهرية.

٣- نبذ السفسطة والاعتماد على البرهان في استحصال النتائج.

الخطوات التي ينبغي اتبعها في استحصال النتيجة:

أ- إثبات أنَّ الإمامة أُعطيت لإبراهيم بعد النبوّة والرسالة وفي أُخريات حياته.

ب- الاعتماد على تعريف القرآن للإمامة دون التأثر بالمذاهب الكلاميّة والمفاهيم العرفية.

ج- لتكتل الرؤية يجب الرجوع إلى شأن النزول ودراسة الروايات الصحيحة

السند الموثقة التي تتحدث عن الإمامة مثل:

أبو محمّد القاسم رفعه عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنا مع الرضاعليه السلام بمرو، فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا، فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيديعليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسمعليه السلام ثمَّ قال: «**يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يقبض نبيّهصلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلِّ شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾، وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمرهصلى الله عليه وآله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِصلى الله عليه وآله حتى بين لأُمَّته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحق، وأقام لهم علياًعليه السلام علماً وإماماً، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأُمَّة إلَّا بيَّنه، فمن زعم أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يكمل دينه فقد ردَّ كتاب الله، ومن ردَّ كتاب الله فهو كافر به**»[1]

وبعد أنْ تعرفنا ممّا سبق على معنى الإمامة عند الرازي والطباطبائي وتناولنا المقصود من محورية الإمامة في بحث المفاهيم واستقرينا بعض الضوابط الموصلة إلى استدلالٍ منطقيٍّ حول محوريّة الآيات الدالة على الإمامة بالأمثلة، فلننظر الآن أي التفسيرين أخذ هذه الضوابط بعين الاعتبار وسنبدأ بتفسير الرازي أولاً، لأنَّه متقدم زماناً على صاحب الميزان بالإضافة إلى أنَّ الطباطبائي كان مطلعاً على تفسير الرازي ويحاول جواب الإشكالات التي أوردها والردّ عليها بنقد منهجيته أحياناً بكلِّ موضوعية.

(١) الكافي: ١/ ١٩٨.

المبحث الثاني: الآيتان من كتب التفاسير

أوّلاً: آية التبليغ بين مفاتيح الغيب والميزان

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

في هذا المبحث سوف نقارن بين ما قاله الرازي والطباطبائي في تفسيرهما حول هذه الآية فنبدأ بالرازي لنرى ما في جعبته وكيف يردّ الطباطبائي عليه.

يبيّن الرازي هذه الآية على أنَّها أمر للرسول بأنْ لا ينظر إلى قلّة المقتصدين وكثرة الفاسقين ولا يخشى مكروههم ويكشف أسرارهم وفضائح أفعالهم، فإنَّ الله يعصمه من كيدهم ويصونه من مكرهم ويستدلُّ على ذلك برواية الحسن عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً وعرفت أنَّ الناس يكذبوني واليهود والنصارى وقريش يخوفوني**»، فلمَّا أنزل الله هذه الآية زال الخوف بالكليّة، وروي أنَّ النبيَّ ﷺ كان أيام إقامته بمكّة يجاهر ببعض القرآن ويخفي بعضه إشفاقاً على نفسه من تسرع المشركين إليه وإلى أصحابه، فلمّا أعزَّ الله الإسلام وأيّده بالمؤمنين قال له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي لا تراقبن أحداً، ولا تترك شيئاً ممّا أُنزل إليك خوفاً من أنْ ينالك مكروه.[2]

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) التفسير الكبير: ٦/ ١٧٩٠.

ثُمَّ يورد مسألة يعطي فيها احتمالات تفسّر قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يتساءل عن معناها ويورد إجابات جمهور المفسرين بأنَّ المراد: أنَّك إنْ لم تبلغ واحداً منها كنت كمن لم يبلغ شيئاً منها، ثمَّ لا يقبل منهم هذا المعنى ويضعفه ويعلل ذلك بأنَّ من أتى بالبعض وترك البعض يؤاخذ بمقدار ترك البعض لا الكلّ فهو ظلم محال ممتنع من البارئ تعالى فسقط هذا الجواب، ويقول إنَّ الأصح عنده مماثلة ذلك بقول الشاعر أنا أبو النجم الذي يقول بها معناه إنَّ الشعر لا يقال عنه شعراً إلَّا إذا كان شعره هو، كناية عن المبالغة في المدح لشعره.

وهنا الآية مثل ذلك إذا لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، ما يعني أنَّه لا يمكن أنْ يوصف ترك التبليغ بتهديد أعظم من أنَّه ترك التبليغ، فكان ذلك تنبيهاً على غاية التهديد والوعيد.

ثُمَّ يذكر لسبب نزول الآية وجوهاً عشرة نورد منها اثنين لنعكف على مقارنتهما بما سيجيب عنه صاحب الميزان خشية التطويل والاكتفاء بمحور الحديث عن محورية الآية للإمامة.

يورد الرازي عشرة أوجه أولها: أنَّها نزلت في قصة الرجم والقصاص في قصة اليهود، ثُمَّ يورد ثمانية بعدها وفي العاشر يقول: إنَّها نزلت في فضل عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، ولمَّا نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه**»، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة[1].

ثُمَّ يقول: إنَّ هذه الروايات وإنْ كثرت إلَّا أنَّ الأَولى حمله على أنَّه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، واستدلَّ بأنَّ ما

(١) انظر التفسير الكبير: ١٢/ ٥٢.

قبل وما بعد الآية كان كلاماً مع اليهود والنصارى، فيمتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجهٍ تكون أجنبية عمّا قبلها وما بعدها.

ثمَّ إنَّ الرازي يتساءل في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، كيف يجمع بين ذلك وبين ما روي أنَّه عليه الصلاة والسّلام شجَّ وجهه يوم أُحد وكسرت رباعيته؟ ويجيب عن ذلك من وجيهن: أحدهما: أنَّ المراد يعصمه من القتل، وفيه التنبيه على أنَّه يجب عليه أنْ يحتمل كلَّ ما دون النفس من أنواع البلاء. وثانيهما: أنَّها نزلت بعد يوم أُحد.

ثُمَّ يعرب أنَّ المقصود من كلمة (الناس) ها هنا الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، ومعناه أنَّه تعالى لا يمكنهم ممَّا يريدون ويستدلُّ على ذلك برواية عن أنس ابن مالك: (كان رسول الله ﷺ يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: انصرفوا يا أيّها الناس فقد عصمني الله من الناس)[1].

وأمَّا صاحب الميزان يرى أنَّ معنى الآية في نفسها ظاهر، فإنَّها تتضمن أمر الرسول ﷺ بالتبليغ في صورة التهديد، ووعده ﷺ بالعصمة من الناس، وكردٍّ على صاحب مفاتيح الغيب بشأن وقوع الآية في وسط آيات تتحدث عن اليهود والنصارى فإنَّ الطباطبائي يرى أنَّ وقوعها معترضاً لتلك الآيات التوبيخية لهم ويستدلُّ على ذلك بعدم وحدة السياق فيقول: لو كانت الآية متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبيِّ ﷺ أشدّ الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب، وتعين بحسب السياق أنَّ المراد بما أُنزل إليه من ربِّه هو ما يأمره بتبليغه في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[2].

وسياق الآية يأباه فإنَّ قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا الحكم

(١) انظر التفسير الكبير: ١٢/ ٥٢-٥٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافة الخطر على نفس النبيِّ ﷺ أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبيِّ ﷺ أنْ يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يسوغ له ﷺ أنْ يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين، فيبلغ الأمر إلى حيث يحتاج إلى أنْ يعده الله بالعصمة منهم إنْ بلّغ ما أُمر به فيهم حتى في أوائل هجرته ﷺ إلى المدينة، وعنده حدّة اليهود وشدّتهم حتى انتهى إلى وقائع خيبر وغيرها[1].

ويرى العلامة أنَّ الآية لا تتضمن أمراً شديداً ولا قولاً حاداً، وقد تقدّم عليه تبليغ ما هو أشدّ وأحدّ وأمرّ من ذلك على اليهود، وقد أُمر النبيُّ ﷺ بتبليغ ما هو أشدَّ من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنية إلى كفار قريش ومشركي العرب، وهم أغلظ جانباً وأشدّ بطشاً وأسفك للدماء، وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب، ولم يهدده الله في أمر تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم.

على أنَّ الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائدة فهي نازلة فيها قطعاً، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كسرت سورتهم فلا معنى لخوف رسول الله ﷺ منهم في دين الله، وقد دخلوا يومئذٍ في السّلم وقبلوا هم والنصارى بدفع الجزية، ولا معنى لتقريره تعالى له خوفه منهم واضطرابه في تبليغ أمر الله إليهم، وهو أمر قد بلّغ إليهم ما هو أعظم منه، وقد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه وأوحش.

فلا ينبغي الارتياب في أنَّ الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها، وإنَّما هي آية مفردة نزلت وحدها.

وإذا تحرينا رداً على ما تبناه الرازي في المقصود بالأمر المراد تبليغه نجد أنَّ العلامة يصرّح بأنَّ المراد إمَّا مجموع الدين أو بعض أجزائه، ويوعز ذلك الخطاب التهديدي في الآية ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لخوف النبيِّ من الناس في تبليغ أمر كان

(١) انظر: تفسير الميزان: ٦/ ٤٨.

يؤخره إلى حينٍ يناسبه، بدليل أنَّ آيات أول البعثة لم تشتمل على التهديد كقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾[2]، وقوله: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3].

ولم يكن الخوف على نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجلّ من أنْ يبخل في شيء من أمر الله بمهجته، فهذا شيء تكذبه سيرته الشريفة ومظاهر حياته، على أنَّ الله شهد في رسله على خلاف ذلك كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾[4]، وقد قال تعالى في أمثال هذه الفروض: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[5]، وقد مدح الله سبحانه طائفة من عباده بأنَّهم لم يخشوا الناس في حين أنَّ الناس خوفوهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾[6].

وليس من الجائز أنْ يقال: إنَّه ﷺ كان يخاف على نفسه أنْ يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوة وينقطع دابرها، فكان يعوقه إلى حينٍ ليس فيه هذه المفسدة فإنَّ الله سبحانه يقول له ﷺ: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾[7].

لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبيَّ ﷺ أنْ يحيي دعوته بأيِّ وسيلة من الوسائل شاء[8].

(١) سورة العلق، الآية: ١.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ١-٢.
(٣) سورة فصّلت، الآية: ٦.
(٤) سورة الأحزاب: الآية: ٣٩.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.
(٨) انظر الميزان: ٦/ ١٥١.

وفي ردِّ العلامة على من سبقه من المفسرين يبيّن أنَّ الآية لم تنزل في بدء البعثة، إذ لا معنى حينئذٍ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إلَّا أنْ يكون النبيُّ ﷺ يباطل في إنجاز التبليغ خوفاً من الناس على نفسه أنْ يقتلوه فيحرم الحياة أو أنْ يقتلوه ويذهب التبليغ باطلاً لا أثر له فإنَّ ذلك كلَّه لا سبيل إلى احتماله[1].

وفي بيان مماثلة قوله تعالى ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ بشعر أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري ... لله دَرّي مِما يُجِنُّ صَدري

كناية عن البلاغة.

كما تقدّم ممَّا تبنّاه الرازي كباقي المفسرين يردّ العلامة هنا بأنَّ هذا يلزم القصور في التبليغ والإهمال في المسارعة إلى ما أمره به الله سبحانه، ويرى أنَّ هذه الصناعة الكلامية إنَّما تصحُّ في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد ونظائر ذلك.

فقد تبيّن أنَّ الآية بسياقها لا تصلح أنْ تكون نازلة في بدء البعثة ويكون المراد فيها بما أُنزل إلى الرسول ﷺ مجموع الدين أو أصله، ويتبين بذلك أنَّها لا تصلح أنْ تكون نازلة في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أيِّ وقت آخر غير بدء البعثة، فإنَّ الإشكال إنَّما ينشأ من جهة لزوم لا يلائم النزول في أيِّ وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير إرادة الرسالة بمجموع الدين أو أصله، وهو ظاهر.

فظهر أنَّ هذا الأمر الذي أُنزل على النبيِّ ﷺ وأكدت الآية تبليغه هو ليس مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضة، بل هو الأمر بتبليغ حكم خاص أُنزل على الخاتم صلوات الله عليه وآله من ربِّه وإنْ يبلغه فكأنَّما لم يبلغ[2].

ويرى العلامة أنَّ السبب في عدِّ ذلك الأمر الخاص مهماً وإنْ لم يبلغه كأنَّما لم يبلغ شيئاً من رسالته لكون المعارف والأحكام الدينية مرتبطة بعضها ببعض، والظاهر أنَّ

(١) الميزان: ٦/ ١٥٢.

(٢) انظر الميزان: ٦/ ١٦٠.

هذا الأمر مهم وسيعارضه مجموعة من الناس أكثر من أيِّ أمر آخر سبق؛ ولذا وعد الله نبيّه أنَّه سيعصمه منهم.

ولا يستقيم هذا المعنى مع أيِّ حكم نازل، فإنَّ المعارف والأحكام الدينية في الإسلام ليست جميعها في درجة واحدة، ففيها التي هي عمود الدين، وفيها الدعاء عند رؤية الهلال، وفيها زنى المحصن وفيها النظر إلى الأجنبية، ولا يصح فرض هذه المخافة من النبيِّ ﷺ والوعد بالعصمة من النّاس مع كلِّ حكم منها كيفما كان بل في بعض الأحكام.

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلَّا لمكان أهميته ووقوعه من الأحكام في موقع لو أهمل أمره كان ذلك في الحقيقة إهمالاً لأمر سائر الأحكام، وصيرورتها كالجسد العادم للروح التي بها الحياة الباقية والحس والحركة، وتكون الآية حينئذٍ كاشفة عن أنَّ الله سبحانه كان قد أمر رسوله ﷺ بحكم يتمّ به أمر الدين ويستوي به على عريشة القرار، وكان من المترقب أنْ يخالفه الناس ويقلبوا الأمر على النبيِّ ﷺ بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنيان الدين وتتلاشى أجزاؤه، وكان النبيُّ ﷺ يتفرس ذلك ويخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه من حين إلى حين، ليجد له ظرفاً صالحاً وجواً آمناً، عسى أن تنجح فيه دعوته ولا يخيب مسعاه، فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل، وبيّن له أهمية الحكم، ووعده أنْ يعصمه من الناس، ولا يهديهم في كيدهم، ولا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوة[1].

وإنَّما يتصور تقليب أمر الدعوة على النبيِّ ﷺ وإبطال عمله بعد انتشار الدعوة الإسلامية لا من جانب المشركين ووثنية العرب أو غيرهم كأنْ تكون الآية نازلة في مكة قبل الهجرة، وتكون مخافة النبيِّ ﷺ من الناس من جهة افترائهم عليه واتهامهم إياه في

(١) انظر: تفسير الميزان: ٦/ ٣٥-٤٥.

أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[1].

ثانياً: الآية الثالثة من سورة المائدة بين مفاتيح الغيب والميزان

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

بعد أنْ تمَّ الكلام في الآية السابعة والستين من سورة المائدة نحاول الرجوع إلى الغرض الأساس والمعالم التي توافق عليها المفسرون من مميزات سورة الأنعام، ثُمَّ نعكف على نقل ما بينه الرازي ثُمَّ العلامة عن الآية الثالثة من سورة المائدة وهي آية إكمال الدين.

والهدف من بيان الغرض من السورة هو إبراز المشترك بين المفسرين حولها حسب ما ذكر العلامة الطباطبائي في تفسيره على حسب عادته في ذكر الهدف من السورة، فإنَّ الآية هي بنت السورة ولذا تفهم من خلالها الغرض العام للسورة فنذكر هنا بعض مميزات السورة مما ذكره العلامة الطباطبائي متوافقاً مع باقي المفسرين بأنَّ الغرض الجامع من السورة على ما يعطيه التدبر في مفتتحها ومختتمها، وعامة الآيات الواقعة فيها، والأحكام والمواعظ والقصص التي تضمنتها هو الدعوة إلى الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق الحقة كائنة ما كانت، والتحذير البالغ عن نقضها وعدم الاعتناء بأمرها، وأنَّ

(١) سورة الدخان، الآية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

عادته تعالى جرت بالرحمة والتسهيل والتخفيف على من اتقى وآمن ثمَّ اتقى وأحسن، والتشديد على من بغى واعتدى وطغى بالخروج عن ربقة العهد بالطاعة، وتعدى حدود المواثيق المأخوذة عليه في الدين.

ولذلك ترى السورة تشتمل على كثير من أحكام الحدود والقصاص، وعلى مثل قصة المائدة، وسؤال المسيح، وقصة ابني آدم، وعلى الإشارة إلى كثير من مظالم بني إسرائيل ونقضهم المواثيق المأخوذة منهم، وعلى كثير من الآيات التي يمتن الله تعالى فيها على الناس بأُمور كإكمال الدين، وإتمام النعمة، وإحلال الطيبات، وتشريع ما يطهر الناس من غير أنْ يريد بهم الحرج والعسر.

وهذا هو المناسب لزمان نزول السورة، إذ لم يختلف أهل النقل على أنَّها آخر سورة مفصلة نزلت على رسول الله ﷺ في أواخر أيام حياته وقد ورد في روايات الفريقين، أنَّها ناسخة غير منسوخة، والمناسب لذلك تأكيد الوصية بحفظ المواثيق المأخوذة لله تعالى على عباده وللتثبت فيها[1].

ولندخل الآن إلى تفسير الفخر الرازي لنرى ما يقوله حول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2]، يرى الرازي أنَّ هذه الآية تتحدث عن أكبر نعم الله عزَّ وجلَّ على هذه الأُمَّة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيّهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلَّا ما أحله، ولا حرام إلَّا ما حرّمه، ولا دين إلَّا ما شرعه، وكلُّ شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، ويستشهد بذلك من الآية ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾[3]، ثُمَّ يورد

(١) انظر الميزان: ٥/ ١٥٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

رواية عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيّهﷺ والمؤمنين أنَّه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمّه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا[1]، وعن شأن نزول الآية نقل الرازي رواية أسباط عن السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

ثُمَّ أورد عدّة روايات تثبت أنَّ يوم نزولها كان يوماً عظيماً قيّمه الرواة على أنَّه عيد للمسلمين، منها رواية ابن جرير بسند مرفوع... إلى أنْ قال كعب: لو أنَّ غير هذه الأُمَّة نزلت عليهم هذه الآية، لنظروا اليوم الذي أُنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه، فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أُنزلت فيه، والمكان الذي أُنزلت فيه، نزلت في يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد[2].

ثُمَّ إنَّه يتعرض إلى مسائل يورد فيها احتمالات للآية فيقول في المسألة الثالثة: (قَالَ أَصْحَابُنَا: هَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ الرَّافِضَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَئِسُوا مِنْ تَبْدِيلِ الدِّينِ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾، فَلَوْ كَانَتْ إمامة عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْصُوصًا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الله تَعَالَى وقبل رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ -وآله- وَسَلَّمَ نَصًّا وَاجِبَ الطَّاعَةِ لَكَانَ مَنْ أَرَادَ إِخْفَاءَهُ وَتَغْيِيرَهُ آيِسًا مِنْ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ يَلْزَمُ أَنْ لَا يَقْدِرَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ النَّصِّ وَعَلَى تَغْيِيرِهِ وَإِخْفَائِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ لَمْ يَجْرِ لِهَذَا النَّصِّ ذِكْرٌ، وَلَا ظَهَرَ مِنْهُ خَبَرٌ وَلَا أَثَرٌ، عَلِمْنَا أَنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّصِّ كَذِبٌ، وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا كَانَ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ)[3].

(١) انظر: التفسير الكبير: ١١/ ١٤٢.

(٢) انظر مفاتح الغيب: ١١/ ١٤٠-١٤٣.

(٣) انظر مفاتيح: ١١/ ٢٨٨.

ويقول في المسألة الرابعة: إنَّ النبيَّ لم يَعِشْ بعد نزول الآية إلَّا واحداً وثمانين أو اثنين وثمانين يوماً.

وأمَّا صاحب الميزان

ويؤيده ما رواه الرازي وباقي المفسرين في تاريخ نزول الآية كما في الدر المنثور عن عبد بن حميد عن الشعبي قال: نزل على النبيِّ ﷺ هذه الآية - وهو بعرفة -: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[1]، ثمَّ يرى أنَّ قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ متقاربتان مضموناً، مرتبطتان مفهوماً بلا ريب، لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين وبين إكمال دين المسلمين، ويستدل بتأييد السلف والخلف من مفسري الصحابة والتابعين والمتأخرين، إذ أخذوا الجملتين متصلتين يتمّ بعضهما بعضاً وبنوا على نزولهما معاً، واجتماعهما من حيث الدلالة على مدلول واحد.

وينتج من ذلك أنَّ هذه الآية المعترضة أعني قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت، ثمَّ يتساءل عن المراد به، هل هو زمان ظهور الإسلام ببعثة النبيِّ ﷺ ودعوته، فيكون المراد أنَّ الله أنزل إليكم الإسلام؟ وأكمل لكم الدين وأتمَّ عليكم النعمة وأيأس منكم الكفار؟ ويجيب: لا سبيل إلى ذلك لأنَّ ظاهر السياق أنَّه كان لهم دين، كان الكفار يطمعون في إبطاله أو تغييره، وكان المسلمون يخشونهم على دينهم فأيأس الله الكافرين ممَّا طمعوا فيه وآمن المسلمين وأنَّه كان ناقصاً فأكمله الله وأتمَّ نعمته عليهم، ولم يكن لهم قبل الإسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله ويتم نعمته عليهم، ثمَّ يورد استدلالات جميلة

(١) انظر: تفسير الميزان: ٥/ ١٦٧.

نلخصها فيما يلي:

١- لازم ما ذكر من المعنى أنْ يتقدم قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ﴾، على قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، حتى يستقيم الكلام في نظمه[١].

٢- المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة إذ أبطل الله فيه كيد مشركي قريش وأذهب شوكتهم، وهدم فيه بنيان دينهم، وكسر أصنامهم، فانقطع رجاؤهم أنْ يقوموا على ساق، ويضادوا الإسلام ويمانعوا نفوذ أمره وانتشار صيته.

لا سبيل إلى ذلك أيضاً فإنَّ الآية تدلُّ على إكمال الدين وإتمام النعمة ولما يكمل الدين بفتح مكة، وكان في السنة الثامنة من الهجرة، فكم من فريضة نزلت بعد ذلك، وكم من حلال أو حرام شرع فيما بينه وبين رحلة النبيِّ ﷺ.

٣- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعمُّ جميع مشركي العرب ولم يكونوا جميعاً آيسين من دين المسلمين، ومن الدليل عليه أنَّ كثيراً من المعارضات والمواثيق على عدم التعرض كانت باقية وكانوا يحجّون حجّة الجاهلية على سنن المشركين[٢].

فتحصل أنَّه لا سبيل إلى ذلك الاحتمال حول يأس الذين كفروا، ثُمَّ يورد احتمالات حول المقصود باليوم إذا لم يراد معناه الوسيع كزمان ظهور الدعوة الإسلامية أو ما بعد فتح مكة من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءة، فلا سبيل إلَّا أنْ يقال: إنَّ المراد باليوم هو يوم نزول الآية نفسها، وهو يوم نزول السورة إنْ كان قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، معترضاً مرتبطاً بحسب المعنى بالآية المحيطة بها، أو بعد نزول سورة المائدة في أواخر عهد النبيِّ ﷺ، وذلك لمكان قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ﴾.

فهل المراد باليوم يوم فتح مكة بعينه؟ أو يوم نزول البراءة بعينه، يكفي في فساده ما تقدم من الإشكالات الواردة على الاحتمالات المتقدمة، أو أنَّ المراد باليوم هو يوم عرفة

(١) انظر الميزان: ٥/ ١٦٧.

(٢) الميزان: ٥/ ١٦٩.

من حجّة الوداع كما ذكره كثير من المفسرين وبه ورد بعض الروايات.

من جهة أُخرى يدعونا أنْ نتأمل فيما لهذا اليوم -وهو يوم عرفة تاسع ذي الحجة من السنة العاشرة من الهجرة- من الشأن الذي يناسب قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ في الآية.

فربما أمكن أنْ يقال: إنَّ المراد به إكمال أمر الحجّ بحضور النبيِّ ﷺ بنفسه فيه، وتعليمه الناس تعليماً عملياً مشفوعاً بالقول.

لكن فيه أنَّ مجرد تعليمه الناس مناسك حجه -وقد أمرهم بحج التمتع ولم يلبث دون أن صار مهجوراً، وقد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد وغير ذلك - لا يصحّ أنْ يسمى إكمالاً للدين، وكيف يصح أنْ يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالاً لذلك الواجب فضلاً عن أنْ يسمّى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين.

على أنَّ هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطة الفقرة الأُولى أعني قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ بهذه الفقرة أعني قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وأي ربط[1] ليأس الكفار عن الدين بتعليم رسول الله ﷺ حج التمتع للناس.

وربما أمكن أنْ يقال: إنَّ المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال والحرام في هذا اليوم في سورة المائدة، فلا حلال بعده ولا حرام، وبإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار، ولاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصر في تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم في الآية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على هذا التقدير وأنَّهم من هم؟ فإنْ أُريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمّهم يومئذٍ ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام وهو الإسلام حقيقة، فمن هم

(١) الميزان: ٥/ ١٧٠.

الكفار الآيسون.

وإنْ أُريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الأُمم والأجيال فقد عرفت آنفاً أنَّهم لم يكونوا آيسين يومئذٍ من الظهور على المسلمين[1].

وبعد ذلك كلِّه يتساءل العلامة الطباطبائي ما معنى قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، هل المراد باليوم واحد من الأيام التي بين عرفة وبين ورود النبيِّ ﷺ المدينة على بعض الوجوه المذكورة في معنى يأس الكفار ومعنى إكمال الدين؟ وفيه من الإشكال ما يردّ على غيره على التفصيل المتقدم.

ثُمَّ وقفة عند قوله تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ تأمين منه سبحانه للمؤمنين ممَّا كانوا منه على خطر، ومن تسر به على خشية، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

والكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلَّا لدينهم، ولم يكن يضيق صدورهم وينصدع قلوبهم إلَّا من جهة أنَّ الدين كان يذهب بسؤددهم وشرفهم واسترسالهم في اقتراف كلِّ ما تهواه طباعهم، وتألفه وتعتاد عليه نفوسهم، ويختم على تمتعهم بكلِّ ما يشتهون بلا قيد وشرط.

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون أهل الدين إلَّا من جهة دينهم الحق فلم يكن في قصدهم إبادة المسلمين وإفناء جمعهم[4]، بل إطفاء نور الله وتحكيم أركان

(١) انظر الميزان: ٥/ ١٧١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٤) راجع تفسير الميزان: ج ٥، ص ١٧٥-١٧٤.

الشرك المتزلزلة المضطربة به، وردّ المؤمنين كفاراً كما مرَّ في قوله: ﴿ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا ﴾ (الآية) قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1].

تحليل ومقارنة

إذا أردنا أن نفهم مصطلحاً قرآنياً لا يسعنا إلَّا أن نجمع كلَّ الآيات القرآنية التي تحكي عن هذا الموضوع.

﴿ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[2] تشير القرائن الداخلية في الآية الكريمة مع الشواهد الخارجية التي تمثلت بما جاء بشأنها من أخبار من طرق الشيعة والسنة، للتدليل على اختصاصها بغدير خم.

إنَّ البحث في أسباب نزول آيات القرآن يكشف عددًا من الحقائق ذلك أنَّ الجانب الرياضي في أسباب النزول أقوى منه في موضوعات التفسير الأُخرى.

ليس من العجيب أنْ يختلف المسلمون في أول آيات نزلت على النبيِّ ﷺ، لأنَّهم لم يكونوا مسلمين آنذاك، ثمَّ إنَّهم باستثناء القلّة لم يكتبوا ما سمعوه من نبيّهم في حياته، فاختلفوا بعده في أحاديثه وسيرته.

ولهذا لا نعجب إذا وجدنا أربعة أقوال في تعيين أول ما أنزله الله تعالى من كتابه بأنَّه سورة اقرأ، وأنَّه سورة المدثر، وأنَّه سورة الفاتحة وأنَّه البسملة[3].

(١) سورة: الصف: الآية ٨-٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) الإتقان للسيوطي: ١/ ٩١.

ولكنَّ العجيب اختلافهم في آخر ما نزل من القرآن، وقد كانوا دولةً وأُمَّةً ملتفَّةً حول نبيِّها، وقد أعلن لهم نبيُّهم ﷺ أنَّه راحلٌ عنهم عن قريب، وحجَّ معهم حجة الوداع، ومرض قبل وفاته مدةً، وودّعوه وودّعهم.

إنَّ الأغراض الشخصيّة والسياسيّة لم تدخل في مسألة أوّل ما نزل من القرآن كما دخلت في مسألة آخر ما نزل منه.

المتتبع في المصادر الحديث والفقه والتفسير يصل إلى أنَّ سورة المائدة آخر سورة نزلت من القرآن وأنَّ آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نزلت بعد إكمال نزول جميع الفرائض، وأنَّ بعض الصحابة حاولوا أنْ يجعلوا بدل المائدة سوراً أُخرى، وبدل آية إكمال الدين، آيات أُخرى!

قول المفسرين السنة الموافق لقول أهل البيت عليهم السلام:

١- أحاديثهم في بيعة الغدير تبلغ المئات، وفيها صحاح من الدرجة الأُولى عندهم وقد جمعها عددٌ من علمائهم القدامى منهم الطبري المؤرخ في كتابه (الولاية)، فبلغت طرقها ونصوصها عنده مجلدين، وتنص رواياتها على أنَّ النبيَّ ﷺ أصعد علياً معه على المنبر، ورفع يده حتى بان بياض إبطيهما، وبلغ الأُمَّة ما أمره الله فيه.. إلخ.

وقد انتقد الطبري بعض المتعصبين السنة لتأليفه هذه الكتب في أحاديث الغدير، التي يحتج بها الشيعة عليهم، ويجادلونهم بها عند ربِّهم.

٢-وتنصّ بعض روايات الغدير عندهم على أنَّ آية إكمال الدين نزلت في الجحفة يوم الغدير بعد إبلاغ النبيِّ ﷺ ولاية عليٍّ عليه السلام، لكنْ ينبغي الالتفات إلى أنَّ أكثر السنة الذين صحّت عندهم روايات الغدير، لم يقبلوا الأحاديث القائلة بأنَّ آية إكمال الدين نزلت يوم الغدير، بل أخذوا بقول عمر ومعاوية، أنَّها نزلت يوم عرفة.

وعنصر التوقيت هنا يرجح قول أهل البيت عليهم السلام والروايات السنية الموافقة لهم،

مضافاً إلى المرجحات الأُخرى.

٣-إنَّ المجمع عليه عند جميع المسلمين أنَّ يوم نزول الآية عيدٌ إلهيٌّ عظيم (عيد إكمال الدين وإتمام النعمة)، فهو مرتبطٌ بإتمام الله تعالى نعمة الإسلام كلِّه على الأُمَّة، وقد تحقق في رأي علماء السنة بتنزيل أحكام الدين وإكماله من دون تعيين آلية لقيادة مسيرته.

وتحقق في رأي علماء الشيعة بإكمال تنزيل الأحكام، ونعمة الحلّ الإلهي لمشكلة القيادة، وإرساء نظام الإمامة إلى يوم القيامة، في عترة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله.

إنَّ اليوم الذي تتحدث عنه الآية الشريفة له خصائص أربع مهمة:

١ - إنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي شعر فيه الكفّار والمشركون باليأس الكامل.

٢ - اليوم الذي أكمل الله لكم الدين.

٣ - اليوم الذي أتمّ الله تعالى نعمته على جميع المسلمين.

٤ - اليوم الذي رضى به الله تعالى أنْ يكون الإسلام ديناً خالداً لجميع الناس، فأيّ يوم هذا اليوم المبارك الذي يتمتع بهذه الخصوصيات الأربع؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكننا اختيار طريقين:

نتساءل مع أيِّ حادثة من الحوادث التاريخية في زمن النزول يمكن تطبيق هذه الآية الشريفة؟

وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال فالفخر الرازي له رأيان:

النظرية الأُولى: وهي إحدى النظريات التي ذكرها الفخر الرازي في تفسيره للآية الواردة في هذه الآية لم ترد بمعناها الحقيقي بل وردت - اليوم - الشريفة، وهي أنّ كلمة أو البرهة من الزمان لا - المرحلة - هنا تعني - اليوم - بالمعنى المجازي، أي أنّ كلمة مقطع خاص منه بما يحكي عن ليلة ونهار واحد.

وطبقاً لهذه النظرية فإنّ (اليوم) هنا لا يقصد به يوم معين أو حادثة خاصة بل يشير

إلى بداية مرحلة تحكي عن عظمة الإسلام ويأس الأعداء والكفّار من تحقيق النصر، هو (اليوم) على هذه الدعوة السماوية.

ولكنَّ الجواب عن هذه النظرية واضح لأنّ المعنى المجازي يحتاج إلى قرينة لصرف الاستعمال عن المعنى الحقيقي، فما هي هذه القرينة الواضحة التي استند عليها الفخر الرازي للقول بالمعنى المجازي؟

النظرية الثانية: إنَّ المراد بكلمة اليوم في الآية الشريفة هو المعنى الحقيقي، أي هو الثامن من شهر ذي الحجّة، في حجة الوداع في (يوم عرفة) يوم خاص ومعين من السنة العاشرة للهجرة.

ولكنَّ هذه النظرية بدورها لا تتضمن إقناعاً كافياً لأنّ يوم عرفة في السنة العاشرة للهجرة لا يختلف عن أيام عرفة الأُخرى في السنة التاسعة والثامنة للهجرة، ولو لم تحدث في هذا اليوم حادثة خاصة فكيف ذكرته الآية الشريفة بلغة التعظيم والتبجيل؟

والخلاصة هي أنّ هذه النظرية غير مقبولة وغير منطقية وعليه فإنّ كلتا النظريتين للفخر الرازي لا تعيننا في استجلاء مضمون الآية الشريفة واكتشاف السرّ المستودع فيها.

مورد هذه الآية الشريفة الذي هو تفسير الطباطبائي جميع مفسري الشيعة وعلمائهم.

في هذه الآية الكريمة المراد من كلمة (اليوم)هو اليوم الذي يئس فيه الكفّار واستوجب رضى الله تعالى وكمل فيه الدين وتمّت فيه النعمة هو اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة أي يوم عيد الغدير، وهو اليوم الذي نصب فيه رسول الله الإمام عليّاً عليه السلام خليفة له على المسلمين وأعلن فيه خلافته وولايته بصورة رسمية.

سؤال: هل هذه النظرية تتطابق مع مضمون الآية الشريفة؟

الجواب: إذا نظرنا بعين الإنصاف إلى هذه الآية الشريفة وابتعدنا عن المسبوقات

الفكرية والرواسب التراثية لرأينا الآية الشريفة تنطبق تماماً على واقعة الغدير لأنَّها:

أولاً: لأنّ أعداء الإسلام بعد أن فشلوا في جميع مؤامراتهم وانهزموا في حروبهم ضدَّ الإسلام والمسلمين وفشلت خططهم في بثّ التفرقة والاختلاف في صفوف المسلمين، فإنّهم لم يبقَ لهم سوى شيء واحد يحيي أملهم في الانتصار والتغلب على هذا الدين الجديد، وهو أنَّ النبيَّ الأكرم بعد رحيله من هذه الدنيا وخاصة مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّه لم يكن له ولد يخلفه في أمر الدعوة واستمرارية الرسالة ولم يعيّن لحد الآن خليفة له من بعده فيمكنهم والحال هذه أنْ يسددوا ضربة قاصمة للإسلام والدعوة السماوية بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله، ولكنّهم عندما شاهدوا أنّ النبيَّ الأكرم قد جمع المسلمين في صحراء غدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة في السنة العاشرة للهجرة واختار خليفة له على المسلمين وهو أعلمهم وأقدرهم في تدبير أُمور المجتمع الإسلامي فإنّ أملهم هذا قد تبدّل إلى يأس كامل، وتبخرت حينذاك طموحاتهم وتمنياتهم وأغلقت فيه النافذة الوحيدة للأمل لديهم فيئسوا من هزيمة الإسلام إلى الأبد.

ثانياً: مع انتخاب الإمام عليٍّ عليه السلام خليفة ووصياً للرسول فإنّ النبوّة لن تنقطع، بل استمرت في سيرها التكاملي لأنَّ الإمامة هي تكميل للنبوّة، وعليه فالإمامة هي السبب في كمال الدين، وعلى هذا الأساس فإنَّ الله تعالى قد أكمل دينه بنصبه الإمام عليّاً عليه السلام خليفة على المسلمين وهو الشخصية المتميزة من بين المسلمين بالعلم والقدرة والتقوى والفضيلة بما لا يدانيه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثاً: إنَّ النعم الإلهية قد تمّت على المسلمين بنصب الإمام عليٍّ عليه السلام خليفة وإماماً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

رابعاً: إنّ الإسلام بلا شك سوف لا يكون ديناً عالمياً وشمولياً وخاتم الأديان بدون عنصر الإمامة، لأنَّ الدين الذي يعتبر نفسه خاتم الأديان يجب أن يتضمن إجابات كافية

لحاجات الناس المتكثرة والمتوالية في جميع الأزمان، وهذا المعنى لا يتسنى من دون إمام معصوم في كلِّ زمان من الأزمنة.

والنتيجة هي أنَّ تفسير الآية الشريفة بواقعة الغدير هو التفسير الوحيد والمقبول من جميع الجهات.

وأمَّا المراد من إكمال الدين فقد ذكر المفسرون في تفسير هذا المقطع من الآية الشريفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ثلاث نظريات:

١- إنَّ المراد من الدين هو القوانين، أي أنَّ ذلك اليوم كملت فيه قوانين الإسلام فلا يوجد في الإسلام خلل قانوني وفراغ تشريعي بعد الآن.

ولكنّ الجواب عن هذه النظرية يمكن أنْ يثير سؤالاً مفاده: ما هذا القانون المهم أو الحادثة المهمة التي وقعت في ذلك اليوم وأدّت إلى تكميل القوانين الإلهية والتشريعات السماوية؟

وفي الجواب عن هذا السؤال يكمن مضمون الآية الشريفة ومدلولها.

٢- المقصود من كلمة الدين في الآية الشريفة هو الحجّ، أي أنّ الله تعالى قد أكمل حج المسلمين في ذلك اليوم العظيم، ولكن هل أنّ الدين يستعمل بمعنى الحج واقعاً، أو أنّ الدين هو مجموعة العقائد والأعمال والعبادات التي يشكل الحج أحدها؟من الواضح أنَّ احتمال الثاني هو الصحيح، وعليه فإنَّ تفسير الدين بمعنى الحج هو تفسير غير مقبول ولا يقوم على دليل متين.

٣- إنَّ تحقق مضمون الآية الشريفة في إكمال الدين وإتمام النعمة في هذا اليوم بأنَّ الله تعالى نصر فيه المسلمين على أعدائهم وخلّصهم من شرّ هؤلاء الأعداء، ولكن هل يصح هذا الكلام؟ فمن هم الأعداء الذين غُلبوا وشعروا باليأس؟ فبالنسبة إلى المشركين فقد استسلموا ودخلوا في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة عند فتح مكة، وبالنسبة إلى اليهود المدينة وخيبر وقبائل بني النظير وبني قينقاع وبني قريظة فإنَّهم قد

هزموا في سنوات سابقة في معركة خيبر والأحزاب فتركوا الجزيرة العربية وخرجوا إلى خارج الحكومة الإسلامية، وأمَّا بالنسبة إلى النصارى فقد أمضوا معاهدة الصلح مع المسلمين، وعليه فإنَّ جميع أعداء الإسلام قد استسلموا قبل السنة العاشرة للهجرة.

نعم، بقي خطر المنافقين الذين يمثّلون أخطر أعداء الإسلام حيث ما زال خطرهم ماثلاً أمام المسلمين، ولكنْ كيف يمكن القول بأنَّهم قد انهزموا وأصابهم اليأس؟ هنا نجد أنَّ هذا السؤال بقي بلا جواب مقنع كما هو حال السؤال المطروح في النظرية الأُولى والذي لم يتقدم أصحاب هذه النظرية بالجواب عن هذا السؤال.

أمَّا تفسير علماء الشيعة فكما تقدم آنفاً فإنّه يجيب عن جميع الأسئلة ويلقي ضوءاً خاصاً على مفهوم الآية وأجوائها.

اعتراف جذّاب من الفخر الرازي أنّه لما نزلت هذه الآية على النبيِّ صلى الله عليه وآله لم يَعِشْ بعد نزولها إلَّا واحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتّة.

وعلى وفق مقولة الفخر الرازي يمكن حدس وقت نزول الآية الشريفة، والنتيجة هي أنَّ القرائن المختلفة التي تحفّ بهذه الآية الشريفة تشير إلى أنَّ هذه الآية تتعلّق بواقعة الغدير وأنَّها نزلت في شأن خلافة أمير المؤمنين الإمام عليٍّ عليه السلام.

أمَّا بشأن آية التبليغ الآية الثالثة من سورة المائدة: فيمكن التساؤل عن أنّ بداية الآية الثالثة من سورة المائدة تتحدث عن اللحوم المحرمة وآخرها تتحدث عن الاضطرار والضرورة وأحكامها، وفيما بينها تتحدث الآية عن الولاية والإمامة، فأيُّ تناسب وانسجام بين مسألة الولاية والإمامة وخلافة النبيِّ صلى الله عليه وآله مع مسألة اللحوم المحرمة وحكم الاضطرار والضرورة ألَّا يكون.

الجواب: إنّ آيات القرآن الكريم لم ترد بصورة كتاب منظم كما هو الحال في الكتب

المتعارفة الكلاسيكية، بل نزلت متفرقة وعلى فترات مختلفة، وقد تكون آيات سورة واحدة قد نزلت في أوقات متباينة، وكان النبيُّ الأكرمﷺ يوصي بكتابة كلِّ آية في سورة معينة، وعلى هذا الأساس فيمكن أنْ يكون صدر الآية الذي يتحدث عن الأسئلة التي كان المسلمون يسألون النبيَّ الأكرمﷺ عنها وعن اللحوم المحرمة قد نزل قبل واقعة الغدير، وبعد مدّة حدثت واقعة الغدير ونزلت آية التبليغ وذكرها كتّاب الوحي بعد آية تحريم اللحوم، ثمَّ حدثت مسألة الاضطرار أو حدث مصداق من مصاديقها وحكم هذا الاضطرار، لذلك نجد أنَّ ذيل الآية الشريفة يتضمن هذا الحكم الشرعي، وقد كتبه كتّاب الوحي بعد الحديث عن واقعة الغدير المذكورة في وسط الآية، وبملاحظة النكتة السابقة فليس بالضرورة أنْ يكون هناك انسجام معين في سياق الآية الشريفة، ومع الالتفات إلى هذه الملاحظة سوف تحل كثير من الشبهات والإشكالات حول هذه الآية، فضلاً عن أنَّ الأحاديث والروايات الشريفة الواردة في شأن نزول هذه الآية الشريفة كثيرة، وقد ذكر العلاّمة الأميني في كتابه القيم (الغدير) هذه الروايات مع الأبحاث المتعلّقة بها بصورة واسعة، فقد أورد حديث الغدير في هذا الكتاب من مائة وعشرة رواة من أصحاب النبيِّ، مضافاً إلى ذلك فقد نقله من ثمانين شخصاً من التابعين أيده فيها كثير من علماء السنة ومفسريهم خلصنا منها إلى أنَّ:

١- آية البلاغ تصرّح بقضية مهمّة جداً، وهي أنَّ ترك تنصيب عليِّ بن أبي طالبعليه السلام هو ترك لتبليغ الرسالة بأكملها.

٢- ممّا يؤكد أهميتها هو ما نجده واضحاً في أقوال الرسول الأكرمﷺ بعد تبليغ مقام الولاية وتعيين الولي للناس، إذ قالﷺ: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»[1] قد بلغت التواتر، بالإضافة إلى ما يكتنف الآية المباركة من القرائن الحالية الكثيرة والواضحة الدالة على

(١) انظر: لسان الميزان، ابن حجر: ١/ ٣.

أهمية هذا الأمر وتأثيره المباشر على مسيرة الإسلام كنزوله ﷺ في حرّ الهجير، وأمره ﷺ برجوع مَن تقدَّم وتقدُّم مَن تأخّر، مضافاً إلى حضور ذلك الجمّ الغفير من الصحابة والمسلمين الذين حضروا لأداء مناسك الحج من سائر أطراف البلاد الإسلامية.

٣- دلالتها على تحديد معالم الأطروحة: أنّ آية البلاغ التي بلّغها الرسول الأكرم ﷺ في أواخر حياته، جاءت تحمل في طياتها الإشارة إلى قضية مهمّة جدّاً في الدين الإسلامي، وهي تحديد معالم أطروحة الإمامة في الإسلام، مؤكدة أنَّ الإمامة شاملة لكلِّ الأبعاد القيادية السياسية منها والحكومية والمرجعية وغيرها، وأنَّ منصب الخلافة والحكومة يمثل أحد أبعاد الإمامة، وهذا هو موضع النزاع مع أتباع مدرسة الخلفاء، حيث إنّهم يختزلون دور الإمام في الحاكمية فقط، فإذا لم يستلم الحكومة لا يكون إماماً، على خلاف معتقد الشيعة الإمامية الاثني عشرية التي تعتقد أنَّ منصب الحاكمية يمثّل أحد أبعاد الإمامة لا جميعها.

٤- دلالتها على الإعلان الرسمي بالولاية والإمامة: إنّ آية البلاغ جاء تبليغها بصيغة الإعلان الرسمي للولاية والإمامة والتتويج العام للإمام عليٍّ عليه السلام أمام المسلمين، ويشهد لذلك كيفية التبليغ، حيث أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يجتمعوا، وجمعت له ﷺ أقتاب الإبل وارتقاها آخذاً بيد أخيه عليٍّ عليه السلام أمام الملأ صادعاً بإبلاغ الولاية، وطلب بنفسه البيعة من الناس لعليٍّ عليه السلام، وبادر الناس لبيعته عليه السلام وسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، وهنؤوا النبيَّ ﷺ وعليّاً عليه السلام، وأوّل من تقدم بالتهنئة والبخبخة، أبو بكر ثمَّ عمر بن الخطاب وعثمان[1]، وروى الطبري عن زيد بن أرقم أنّ النبيَّ ﷺ قال للناس آنذاك: «**قولوا أعطيناك على ذلك عهداً من أنفسنا، وميثاقاً بألسنتنا، وصفقة بأيدينا، نؤديه إلى**

(١) انظر: مسند أحمد: ٤/ ٢٨١. المعجم الكبير: ٥/ ٢٠٣، فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٦/ ٢٨٢، ح١٢٠. تذكرة الخواص: ٣٦، نظم الدرر: ١٠٩، شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ١/ ٢٠٠.

أولادنا وأهلنا لا نبتغي بذلك بدلاً»[1].

والحاصل: لو اقتصر في تبليغ الإمامة على تلك البيانات الخاصة للرسول الأكرمﷺ والمقتصرة على حضور بعض الصحابة، لضاعت وأصبحت روايات ضعافاً، ولما وصلت إلينا بشكل واضح ومتواتر كما جاءتنا آيات وروايات البلاغ، وذلك بسبب منع تدوين حديث رسول اللهﷺ في عهد الخلفاء ولتولي بني أُمية وأعداء أهل البيتعليهم السلام تدوين الحديث فيما بعد؛ ولذا كان تبليغها في واقعة الغدير كفيلاً بأن يجعلها تصل إلى حدّ التواتر وإجماع المسلمين الذي لا يمكن تجاوزه.

وأخيراً ترجح تفسير الطباطبائي على الفخر الرازي ذلك لأنَّه فصّل مفردات الآيات وتقسمها، فأخذ القسم الأول من تعريف الإمامة ومحوريتها حول الهداية وقسمه إلى قسميه المعروفين وهما الإراءة للطريق والإيصال للمطلوب أو الهداية التشريعية والتكوينية، ثمَّ بنى على ذلك فاختار من الهدايتين الثانية وهي الإيصال إلى المطلوب تكوينياً وبالطبع فالأمر سيكون تكوينياً كذلك لأنَّه هو المناسب للهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، ولا يمكن أنْ يكون الأمر تشريعياً مع كون الهداية تكوينية ولم يختر الأمر التشريعي.

(١) انظر: كتاب الولاية: محمد بن جرير الطبري: ٢١٤-٢١٦.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٣. مفاتيح الغيب التفسير الكبير، الناشر، دار الفكر، فخر الدين الرازي، ١٤٠١ - ١٩٨١، عدد المجلدات: ٣٢، الطبعة الأُولى.

٤. مفاتيح الغيب التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسن بن، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ .

٥. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، توفي ٩١١، طبعة مصر، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم.

٦. الاحتجاج: الشيخ الطبرسي، توفي ٥٤٨، طبعة النجف الأشرف، العراق.

٧. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، توفي ١١١١، مؤسسة الوفاء، بيروت.

٨. تفسير الكشاف: جار الله الزمخشري، توفي ٥٢٨، منشورات البلاغة، قم، مصورة عن الطبعة المصرية، ١٣٠٧.

٩. دلائل الإمامة: محمد بن جرير بن رستم الطبري - مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٨.

١٠. عيون أخبار الرضا: الصدوق، توفي سنة ٣٨١، منشورات الأعلمي طهران - ١٣٩٠.

١١. مجمع البحرين للعلامة فخر الدين بن محمد الطريحي، الطبعة الثانية ١٣٦٥ ش، مكتبة المرتضوي، طهران، إيران.